المحور الخامس:

الإقتصاد السياسي

الإشتراكي

المدرسة الإشتراكية: التحليل

تعتبر المدرسة الفكرية الإشتراكية انتقاد شديد اللهجة للإقتصاد السياسي الرأسمالي، ولكن بطرق علمية، استخدم في عملية التحليل مناهج علمية معترف بها.

تنسب المدرسة الاشتراكية الى كارل ماركس، ولا يعني ذلك عدم وجود مفكرين غيره، ممن دعوا الى اقتصاد سياسي بديل عن النظام الرأسمالي المشبع، بالعقيدة الليبرالية التي أنتجت حسب هذه المدرسة، حالة الاستغلال، والبؤس والفقر لدى السواد الأعظم من الشعب في المجتمع الرأسمالي الصناعي. وقد اتبع في هذا الصدد منهجا علميا مغايرا لما كان عند الكلاسيكيين. انما النظرة الديالكتيكية للواقع الاجتماعي والاقتصادي، ودورهما في البنى السياسية القائمة[1]، ولكن قبل تحليل نظريات كارل ماركس، جدير بالذكر التطرق الى الفكر الاشتراكي الذي سبق ماركس وقد عرف بالاشتراكية المثالية.

مبدئيا فالفكر الاقتصادي الاشتراكي يبدأ حيث وصلت الرأسمالية الصناعية، ويركز على النتائج الاجتماعية والسياسية التي تراكمت بعد تطبيق آراء ونظريات اللبراليين من المدرسة الكلاسيكية. ونقصد بذلك حالة البؤس والتعاسة التي تميزت بها الطبقة العمالية، نتيجة تراكم رأس المال بيد طبقة تمتلك وسائل الإنتاج وعوامله، وتتحكم في علاقاته، من تشييد للمعامل والمركبات الصناعية الضخمة، مثل مصانع النسيج، وصناعة الحديد والصلب، وصناعة السيارات، والمركبات الكبرى المتخصصة، ومناجم الفحم والفولاذ، وفي خضم ذلك التطور، تبادرت مظاهر استغلال كبير للإنسان، " العمال، الأطفال، النساء " وبؤس مدقع نتيجة ظروف العمل في المناجم المظلمة، والمعامل الضيقة وانخفاض الرواتب، وبذلك كان النظام الإجتماعي يتسم بتراكم كبير لرؤوس الأموال لدى الرأسماليين واستثمارات جديدة ولكن على حساب تضحيات اجتماعية كبيرة دفعت فاتورتها الباهظة الطبقة العاملة. ونتيجة لهذه البنية الإجتماعية ظهر معارضون للمذهب الرأسمالي – الليبرالي – الكلاسيكي، وقام الباحثون بناءا على المنهج المتبع، والتحليل المقدم، من طرف الفلاسفة والمنظرين في هذا الشأن، بتقسيم المدرسة الإشتراكية إلى قسمين[2]:

أ– الإشتراكية المثالية: هم مجموعة مفكرين وفلاسفة اجتماعيون، طوباويون من اليوتوبيا أي المثالية، وهم الذين انتقدوا الرأسمالية الكلاسيكية ورفضوا أسس النظام الذي دعت اليه، واهتموا بما لاحظوه في مجتمعات الرأسمالية، من بؤس السواد الأعظم من المجتمع،

وقدموا خططا تضع تصورات مثالية، عن ما ينبغي أن تكون عليه الحياة الإقتصادية والاجتماعية، على شكل نماذج بنيوية، تتطابق مع ما لديهم من تصورات، لديهم أكثر من تماشيها مع الأسلوب العلمي. ويمكن القول أنها تمحورت على ثلاثة أسس:

– نقد قوي و معمق للرأسمالية الصناعية– الكلاسيكية، وكل أسسها الفكرية، ومناهجها التحليلية، وأسسها القانونية واعتبارها نظام الإستغلال (استغلال البورجوازية للبروليتاريا [3]).

– الاعتقاد بان التغيير في المجتمعات يأتي من طرف كل أفراد المجتمع، بنضالهم، ثم من خلال وعيهم بأخطار النظام الرأسمالي، والنتائج الاجتماعية الكارثية التي سببها لأغلبية الناس.

– تقديم تصورات مثالية عن مجتمعات جديدة، خالية من الإستغلال. و كأساس كان مفكرو هذه المدرسة من فرنسا وانجلترا أي من صلب مجتمع الرأسمالية الكلاسيكية. وكانت مطالبهم تنحصر في ضرورة تدخل الدولة أو زوالها أحيانا وتنظيم التعاونيات والنقابات.

ومن أشهر الرواد في الاشتراكية المثالية نجد:

1–سان سيمون 1760 – 1825:

كان سان سيمون من الطبقة النبيلة في فرنسا، وقد سافر إلى أمريكا وشارك في حربها وتعامل مع الثورة الفرنسية، ومدها الفكري، وقدم عدة كتابات في الظروف الإجتماعية، والمجتمع الصناعي، كونت في جملتها فلسفته الإشتراكية، التي تعلق بها العديد من تلامذته، وهي ما يشكل الأرضية الفكرية، للعديد مما يعرف بحركات أو أحزاب اليسار في أوربا والعالم، وما تزال إلى يومنا هذا تجد من ينادي بها من المفكرين والباحثين الأوربيين وغيرهم. وقد عايش سان سيمون فترة الثورة الفرنسية، وميلاد المجتمع الصناعي في فرنسا، اعتلاء الطبقة البورجوازية لشؤون الاقتصاد والسياسة، وقد وجد أن النظام الليبرالي ومؤسساته السياسية من جهة، والحرية الإقتصادية الرأسمالية من جهة أخرى، هما مصدر بؤس المجتمع وحالة الحرية الاقتصادية الممارسة تعد بمثابة الفوضى[4].

يعتقد سان سيمون أن زوال الملكية الخاصة ليس الحل الأجدر لتغيير حالة البؤس القائمة، ولهذه الظروف المأساوية ويدعو إلى ضرورة تحديد الملكية وتنظيمها، وهي الفكرة التي سوف يمون لها اثرا على دور الدولة في الاقتصاد.

يرى أن الصناعة هي أساس التقدم والرقي واعتمادا على ذلك يرى انه من الضروري خلق مجتمع جديد " نظام صناعي" يسير من طرف نخبة المنتجين و المثقفين، و يؤمن بطلائعية النخبة التي تقود المجتمع إلى التنمية، لأن عموم الناس، لا يمتلكون الوعي، غير

قادرين على ذلك. وهو بذلك لم يبتعد عن قناعته، بالقوى المحركة للتطور الاجتماعي، من علم ودين وأخلاق. و كانت أفكار سان سيمون الأرضية الفكرية التي اعتمدها تيار البنيويين بعد الحرب العالمية الثانية. فالنشاط الاقتصادي يتطور من خلال التضامن و الاتحاد بين الفئات و الأقاليم، و تداخل مصالحها بينها يكون اساس الودة الوطنية، كدلك تداخل مصالح الدول يؤدي إلى خلق تنظيمات دولية (جماعت واتحادات اقتصادية)، وكان سان سيمون من نظرته الأخلاقية داعيا الى التعاون الاقتصادي، وقد جعله ذلك ضمن المبشرين الأوائل بالوحدة الإقتصادية الأوربية[5].

2–شارل فوريي: 1772 – 1837:

هو من عائلة تجار، عمل في صغره في الصناعة، ثم أصدر عدة مؤلفات أهمها " العالم الصناعي الجديد " الذي صدر سنة 1829 وفيه لخص آراءه وأفكاره المثالية.

ويعتبر أخصب المثاليين خيالا، لأنه أعطى تصورا عن مجتمع بشري غريب، لا يعرف القلق والحزن والملل، فهو مجتمع السعادة وكان مؤمنا إيمانا عميقا بإمكانية تشييد هذا المجتمع. وجه انتقادا لادعا للنظام الرأسمالي واعتبره نظاما لا يصلح للتقدم البشري.

يرى فوريي أن العامل داخل النظام الرأسمالي مجبر على القيام بعمله بدون أي باعث نفسي وبدون أية رغبة في تأدية هذا العمل. فهذا العامل لا يهتم بالعمل إلا لكونه ضرورة وواجب للحياة، وهو لا يجد فيه أية متعة مما ينجم عنه انخفاض في إنتاجية العمل. لذلك بحث فوريي عن إطار جديد أو نظام اقتصادي واجتماعي جديد يوفر المتعة والفرحة بما يجعل العامل يقدم على عمله. ويقترح لأجل دلك إنشاء مجتمعات ثكنات للعمال "الفلانستير" تتخصص في إنتاج معين، وقد وصل خياله إلى حد تحديد عدد العمال الأنسب للعيش في "الفرانستير" الواحد، وقدره ب: 1620 (810 من الرجال و810 من النساء) ويختار كل فرد نوع الإنتاج الذي يتخصص فيه، حتى ترتفع إنتاجية العمل. ويرى ضرورة توفير وسائل الراحة والتسلية داخل هده الثكنات (العلاج، حضانات الأطفال، المطاعم، النوادي، ...) ويتوزع الدخل داخل كل ثكنة وفق مقدار العمل الذي يؤديه كل فرد.

وقد نالت أفكار فوريي النقد وذلك بشكل غير محدود من قبل علماء الاجتماع والفلسفة وحتى الأدباء، ولكنها ان كانت غارقة في المثالية، الا انها تؤكد حالة أساسية، وهي أن المجتمع الرأسمالي في عصره، يواجه حالة البؤس، والفوضى ويبين أن الوضع يتطلب تدخلا من قوى معينة من أجل تغييره[6].

3-جوزيف برودون 1809 – 1864:

ولد في فرنسا وعمل مصححا لغويا في إحدى المطابع ثم انتقل إلى مجال الصحافة والتأليف، ناضل في المنضمات الإشتراكية، كانت له خصومات كبيرة مع العديد من المفكرين وهي مشهورة، أهمها تلك التي وقعت مع الفيلسوف، وعالم الاقتصاد السياسي، كارل ماركس عندما ألف كتابه " فلسفة البؤس " فرد عليه ماركس بكتاب "بؤس الفلسفة". أصدر 25 مؤلفا أهمها على الاطلاق"ما هي الملكية" سنة 1840، "نظام المتناقضات الإقتصادية" سنة 1846، وكتاب "تنظيم القرض" سنة 1848. كان برودون مناهضا شرسا للرأسمالية وقانون الملكية الخاصة، ويمثل التيار الفوضوي. فالملكية في فلسفته ليست سوى سرقة لأنها تجسد استغلال العمال واستحواذ المالكين على إنتاج العمال، وما الفوائد والأرباح سوى تعبير عن هذه السرقة. إلا انه لا يطالب بإلغائها لأن ذلك يتعارض مع الطبيعة البشرية، ولكنه يطالب بإحلال حق التصرف محل حق الملكية، ويعارض أن ينتقل ذلك عن طريق البيع أو الإرث، وهو ما سوف يؤدي إلى نهاية الصراع بين الطبقات الإجتماعية. ويرى أن ينشئ نظام جديد يعتمد من الناحية السياسية على الفوضوية، تزول الدولة منه، لانها أداة قمع لحرية الفرد، مهما كان اتجاهها وفلسفتها، وفي هذه الحالة تسير الحياة الإدارية للبلاد عن طريق عقد اجتماعي، يعمل أساسا على تنظيم دواليب الإنتاج وخاصة الإنتاج الصناعي وينظم العلاقات بين الأفراد والطوائف وتعاونيات المستخدمين، كما اقترح قيام بنوك تعاونية تقرض المتصرفين في الملكية أموالا بدون فائدة. ويعتقد أن هذا النظام الإجتماعي يساعد الأفراد على إغناء أنفسهم والمجتمع ماديا ومعنويا لأنه يعتمد على النظرة الإنسانية وهي نظرة طيبة في الأساس.

وقد شكلت أفكار برودون الأساس لدى المفكرين الفوضويين من بعده، وخاصة الروسيان "باكونين" حيث أشادت فلسفتهم بحرية الفرد واعتبرت الإمتثال والطاعة والتبعية مظاهر للقمع.

من بين المثاليين الإنجليز " روبرت أوين " 1771 – 1858 الذي كان من الطبقة البرجوازية اعتنى بأحول عماله ورفض الحصول على الأرباح وأنشأ المؤسسات الإجتماعية أشهرها مستعمرة شيوعية في الولايات المتحدة الأمريكية يعيش فيها مجموعة من الفلاحين إلا أنها باءت بالفشل.

ب– الإشتراكية العلمية:

بغياب الموضوعية عن الفكر اليوتوبي، وعدم وجود فر ص له امام التطبيق العملي، رغم أنها دلت عن حالة غضب من الاستغلال الاقتصادي، والقمع الذي مثلته دولة الملكية الخاصة. فقد وتعرضت إلى انتقاد الإشتراكيين، وعلى رأسهم كارل ماكس. وقد ظهرت الإشتراكية العلمية في كتابات "كارل ماركس وفريدريك أنجلز" المفكران الأساسيان للتحليل الماركسي المبني على الجدلية المادية والتطور التاريخي للصراع الطبقي[7].

1–كارل ماركس والتحليل الإقتصادي (1818 – 1883):

ابن لعائلة برجوازية ألمانية، أصبح أستاذا للفلسفة كان المؤسس الأول للحركات الثورية وطرد من ألمانيا فلجأ إلى إنجلترا سنة 1848 أصدر مع انجلز "بيان الحزب الشيوعي" أهم مؤلفاته "رأس المال" الذي يضم ثلاث كتب "تطور الإنتاج الرأسمالي، تداول رأس المال، الطريقة الشاملة للإنتاج الرأسمالي".

استلهم ماركس فلسفته من الواقع الإقتصادي والتيارات الفكرية التي سادت القرن التاسع عشر. أخد ماركس طريقة التحليل الجدلي عن الفيلسوف الألماني " هيجل " وهو التحليل الذي يحيط بأعمق مظاهر التطور ويقتنع بأبدية التطور المادي، وأخد عن الكلاسيكيين نظرية القيمة (العمل) وبنى فلسفته الشمولية الهادفة إلى تفسير مراحل التطور التاريخي للإنسانية.

يحكم ماركس على النظام الإقتصادي الرأسمالي بالزوال في تنبؤه بانتشار النظام الإشتراكي الذي يبقى في حالة تطور حتى يصل إلى مرحلة الشيوعية.

يكتشف ماركس أن العلاقات الإجتماعية مرتبطة بقوى الإنتاج. "إن الطاحونة اليدوية أنتجت النظام الإقطاعي أما الطاحونة البخارية فقد أنتجت الرأسمالية الصناعية". وهذه الفكرة لدى ماركس تبيين تبعية النظام الإجتماعي للواقع المادي. فتحول طريقة الإنتاج (وسائل الإنتاج تتحول معه بنية العلاقات الإجتماعية بين الأفراد، ويترتب عن ذلك وضعية اجتماعية مترافقة مع كل تقدم تقني، وهذا التقدم التقني هو الذي نقل البشرية من النظام البدائي إلى النظام العائلي، ثم إلى النظام الإقطاعي، فالنظام الحرفي ثم الرأسمالي. وفي كل مرحلة من هذه المراحل تمكن طريق الإنتاج طبقة معينة من السيطرة على باقي الطبقات فتضع قوانين وتنشئ مؤسسات وتنشر أفكارا وإيديولوجيات تفرد من خلالها هيمنتها على الطبقات الأخرى. وبذلك يرى ماركس أن كل المظاهر الإجتماعية والسياسية والفكرية ومؤسسات وأخلاق وفنون ماهي إلا انعكاس لواقع طبقي ومادي معين، وبذلك تخضع البنية الفوقية للبنية التحتية، فالأولى تمثل كل المظاهر الإجتماعية والثانية تمثل الوضع المادي لوسائل الإنتاج، وتبقى البنيتان التحتية والفوقية في حالة جدلية تؤدي إلى تغيير دائم، ويعود ذلك إلى كون سيطرة طبقة ما في أي نظام غير دائمة، فسرعان ما تتطور طريقة الإنتاج ويتسع مدى استغلال الطبقات العاملة فتعمل على الإطاحة بالطبقة المسيطرة ويبقى الصراع حالة مستمرة حتى تضمحل الملكية الفردية لوسائل الإنتاج التي تمثل النظام الرأسمالي وتنمحي معها الطبقات وينتهي الصراع.

أهم أفكار ماركس تناولت المراحل التي تمر بها الرأسمالية حتى تصل إلى زوالها وهي مرتبطة بالقيمة، فائض القيمة، التراكم، التركيز، التفقير، نظرية الأزمات.

نظرية القيمة: يعتبر ماركس أن قيمة سلعة ما تقاس بالعمل الذي استغرق في إنتاجها. وتقاس هذه القيمة بالزمن الإجتماعي لا بالزمن الواقعي، فإذا قضى عامل 5 ساعات في إنتاج سلعة أ، و4 ساعات في إنتاج سلعة ب، نقول أن قيمة أ تزيد على قيمة ب بساعة واحدة، كل المواد هي تراكم للعمل البشري الذي هو أساس الإنتاج.

نظرية فائض القيمة: يضطر العمال للعمل لصاحب رأس المال لأنهم لا يمتلكون وسائل الإنتاج وهم كثرة، يتزاحمون على عرض قوة عملهم فيمنحهم الرأسمالي أقل أجر ممكن وهو الأجر الذي يمكنهم من العيش وإعالة أفراد عائلاتهم وهو الحد الأدنى للمعيشة، في نفس الوقت ينتجون لصاحب العمل سلعا تساوي قيمتها مقدار الزمن "العمل الإجتماعي" الضروري لصناعتها، وهكذا يحصد صاحب رأس المال الفارق الموجود بين قيمة السلعة وقيمة الأجر المدفوع للعمال، وهذا الفرق يسمى فائض القيمة وهو وحدة التحليل الرئيسية لدى الماركسيين في دراسة النظام الرأسمالي. ويعرفه ماركس على أنه "كمية العمل الاجتماعي الضروري غير مدفوع الأجر". ويترتب عن ظاهرة فائض القيمة نظرية التراكم التي يرى فيها ماركس لأن الرأسماليين أرباح فائض القيمة نظرية التراكم التي يرى فيها ماركس أن الرأسماليين يجمعون أرباح فائض القيمة ويستثمرونها في شراء وسائل الإنتاج

نظرية التفقير:

ترتفع أرباح أصحاب رؤوس الأموال جراء حصولهم على فائض القيمة والأرباح وينخفض مستوى معيشة العمال ويترتب عنها ظاهرة التفقير التي تمس أكبر عدد من السكان وانخفاض في مستوى الأجور بينما تتزايد نسب الأرباح.

نظرية الأزمات:

نتيجة لنظرية التفقير هذه ينقص طلب المستهلكين على السلع لان الطبقة العاملة ليس بمقدورها تحصيل طلباتها بأجور متدنية وهي التي تكون السواد الأعظم من السكان أي المجتمع. وينجم عن ذلك انعدام التوازن بين العرض العام والطلب العام وتتراكم السلع في المخازن حيث لا تجد مشتريا وتقفل المعامل ويسرح العمال ويتشرد العاطلون وتتوالى هذه الأزمات الواحدة مرتبطة بالأخرى حتى تصل الرأسمالية إلى أزمة كبرى تطيح بها، وهكذا يتنبأ ماركس بحتمية نهاية النظام الرأسمالي حتمية تفرضها التطورات الموضوعية. ويؤكد عل الطبقة العمالية أن تنظم صفوفها وأن تتسلح بالوعي والإيديولوجية العلمية لتقوم بالثورة التي ستقضي على النظام الرأسمالي في عباراته الشهيرة "يا عمال العالم اتحدوا" يعبر عن ضرورة التحام الطبقة العمالية في كل أنحاء العالم.

لقد كانت النظرية الماركسية وليدة عصر تميز بالإستغلال الفظيع للإنسان فالطبقة العاملة عاشت الإستغلال من طرف الرأسمالية وكان نضال ماركس يتوافق مع المرحلة التاريخية التي عاش فيها. ودلت نظريته على عمق التفكير العلمي والعبقرية في تقديم الظواهر الإقتصادية وارتباطها السياسي والإيديولوجي. إلى أن جملة تنبؤاته تم تجاوز البعض منها لأن النظام الرأسمالي انتقل من استغلال الطبقة العمالية (البروليتاريا) إلى استغلال الشعوب المستعمرة ونهب ثرواتها الوطنية وهو ما تمكن به هذا النظام مت تحويل جزئي لأزماته وقاية من الهزمات الخطيرة إن لم تكن النهاية والزوال الذي تنبأ به ماركس.

كما ان الثورة العمالية التي كان يناضل من أجلها لم تحدث في دار الرأسمالية الصناعية كما تنبأ لها (بريطانيا) وإنما وقعت في روسيا القيصرية الإقطاعية (الثورة البلشفية 17 أكتوبر 1917).

وتبقى الماركسية كمدرسة علمية سياسية اقتصادية منهجا لا يمكن التخلي عنه في العالم الذي هيمنت فيه العوامل الإقتصادية على باقي العوامل.

2-الإشتراكية بعد ماركس:

كانت كتابات ماركس وإنجلز تؤثر على كل التيارات والإتجاهات الفكرية والسياسية اليسارية في أوربا وكانت الملهم بالنسبة للتنظيمات العمالية في البلدان الصناعية. كما تم إغناءها بعطاءات فكرية جديدة مثل كتاب برنشتاين "الإشتراكية النظرية والإشتراكية العلمية" الذي صدر سنة 1899 و"روزا لوكسمبورج" التي قادت الحركة الماركسية في ألمانيا وأعدمت في أحداث 1923. غير أن أهم إضافات فكرية وسياسية للماركسية جاءت من روسيا بعد الثورة البلشفية وأصحاب النظريات الجديدة فيها هم من قادة الحركة الثورية ثم أصبحوا بعدها قادة الدولة الشيوعية للإتحاد السوفياتي وهم "لينين"، "تروتكسي" و"ستالين".

فلينين كان مفكرا سياسيا واقتصاديا وقائدا ثوريا ورجل دولة لأنه نظم الجهاز الثوري وقاد الدولة السوفياتية بعد الثورة وكان يربط بين الحركة والنظرية ويرتكز تحليله على نفس قواعد التحليل الماركسي مع أنه اتسم بالطابع السياسي أكثر من الإقتصادي. ويرى أن الثورة التي ناضل من أجلها ماركس والتي ستنهي النظام الرأسمالي لا تؤدي بالضرورة إلى زوال الدولة، بل ستركز دكتاتورية البروليتاريا السلطة بيدها في مرحلة مؤقتة حتى تقضي على رواسب الصراع الطبقي وتصل بالمجتمع إلى مرحلة الشيوعية. ويركز على أن تكون البروليتاريا هي قائد الثورة بالتحالف مع الطبقة الزراعية من الفلاحين. كما بحث في ظاهرة الأميبريالية واعتبرها آخر مظاهر تطور

الرأسمالية وبين أنها تتمثل في استيلاء الشركات الرأسمالية الكبرى على الخيرات الإقتصادية والأسواق الأجنبية وهو ما ينجم عنه تناقص كبير بين المستعمرات والمستعمرين الذين يتسابقون في نهب ثروات الأمم المستعمرة، وتؤدي هذه التناقضات إلى نشوب الحروب المحلية والعلمي وهو ما يساعد على نجاح الثورات العالمية المعادية للأمبريالية.

أما تروتسكي الذي يعد أحد أهم القادة الذين ساهموا في نجاح الثورة السوفياتية فقد ركز أكثر على القضايا ذات الشأن الإقتصادي، وآمن بإمكانية انتصار الثورة الإشتراكية في العالم في آن واحد وخاصة في المعسكر الرأسمالي بنظرية "الثورة المستعمرة" التي رفضها كل من فلينين وستالين، اعتقادا منهما بضرورة الإهتمام بالثورة داخل روسيا أولا. واهتم تروتكسي بالعلاقة بين الحزب الشيوعي والنقابة العمالية واعتبر النقابة تنظيما في خدمة الدولة البروليتارية.

والواقع أن الكتابات التي أصدرها لينين وستالين تناولت الإمبريالية بشكل مفصل وكذلك أبدعوا في نظرية الإحتكارات الرأسمالية، وكذلك تأثير العوامل الإقتصادية في ظهور القوميات ومهما يكن عن مصير الشيوعية اليوم فلا أحد ينكر إسهامات الماركسية في التحليل الإقتصادي وفي إلهام الحركة النقابية عالميا بل وفي تفسير الظواهر الدولية مثل الصراعات والحروب وغيرها ...

هوامش المحور الخامس: